أينما كان ...

قصة بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

ربما كان الان(*)في قريته التي تتالف من بضعة منازل من الحجر الغشيم، الذي لم يصقل ولم تحسن تسويته ، منازل يتكون كل منها من حجرتين او ثلاث حجر مبنية متلاصقة على صف واحد ، متجهة كلها الى الجنوب حتى تتلقى الشمس بجباهها وتترك ريح الشمال وراء ظهورها ، تحيط بهذه المنازل ارض منبسطة ولكنها مزروعة رؤوس حجارة وفتات صخور ينبت في تربتها الفقيرة عشب لايكاد يشبع بطون دوابه القليلة من نعاج هزيلة وافراس ضئيلة القد وبضعة حمير وبعير او بعيرين ... ربما كان الان في قريته تلك التي لايربط بينها وبين ماحولها من مدن او قرى الا دروب ضيقة في الارض الصخرية ولكن جنود اسرائيل يبرزون فيها بين الحين والحين ليحصوا الذكور من اهل القرية وليتفقدوا فيها بطاقات التموين ، فاذا اقتحموا عليه الحجرة المبيضة النصف الاسفل من جدرانها الداخلية بالكلس والتي كان يعدها مضافة لزواره وجدوه يتشاغل باشعال نار كان في يوم ما يعد عليها القهوة للضيوف ، فينتهرونه ، فيقوم اليهم متكاسلا بين البرم والثائر بينما يتسلل احفاده هاربين الى الحجرة الاخرى حيث تجمعت في زاوية منها حفيداته وامهاتهن وجداتهن،اعينهن الى الباب واسماعهن الى المضافة وصدورهن مملوءة بالتوجس والخوف والغم ...

ربما كان الان في قريته تلك او في قرية اخرى بعيدة ، قرية على الحدود ، في كوخ مصنوع من القش والطين او في بيت من الشعر قائم على عمودين ، عنده كما عند كل رجال الحدود بندقية ولكنه لايحملها على كتفيه فهي على كتفيه الواهنتين ثقيلة وانما يعتمد عليها حين يقوم . ينظر من تحت حواجبه الكثة الى ابناء ابنائه وبناتهم فلا يملأ صدره الغم الذي يملاه لو كان في قريته حيث يقتحم عليه جنود اسرائيل حجرة المضافة وانما تملاه حسرة ان ينتهره حين يبطىء في القيام والاحترام عريف لايدري من هو ، اين كان ، واين امسى ... وان يرتقب ليقيم اوده ويطعم صغاره وصغار ابنائه ان تصل اليه حصته من معونة الشتاء وان يمد عينيه فيرى بمد البصر طلائع الارض التي هي ملك له او لمن هو منهم ولكنه لايقوى على الوصول اليها .. .

ربما كان في قريته تلك وراء الحدود او في قرية اخرى على الحدود وربما لم يكن في هذه ولا في تلك وكان في مكان اخر . ان عشرة اعوام امد طويل على شيخ ينوء بعبء السنين .. ربما كان في جدث تحت سطح الارض انطفات فيه عيناه اللامعتان وهمد صوته الحاد واتى الموت فيه على حركات ذراعيه المقتصدتين وخطوه الهادىء المتزن ، فلم تبق منه الا حجارة مكومة على قبر ضائع في تلك الارض البعيدة وهي القريبة المرخصة وهي الغالية ، المنسية وهي التي لاتنسى .. .

ربما كان الان في قريته وربما كان في قرية اخرى على الحدود او كان دفينا في قبره . اينما كان فاني اذكره واحيي ذكراه واخفض الرأس لتحيته ولدى تذكاره !

*

حين وقع بصري عليه لاول مرة احسست باني لقيت به بعضا من اهلي الذاهبين . رأيت في جلسته القرفصاء على الموقد يهيىء القهوة لضيوفه جلسة جدي حداد في مضافته وهو يصب القهوة من الدلة الكبيرة التي اسمها القمقوم الى الدلال الاخرى المتدرجة في الحجم حتى تنتهي الى المصب وهو اصغر انية القهوة الذي منه يسقي الضيوف . كان كجدي ذاك في صغر قده وفي انحناء ظهره اذا قام وفي لبثه اكثر وقته امام الموقد متشاغلا بالقهوة ونارها ومحماسها ونجرها عن كل شغل. ولكن ملامح وجهه والتماع عينيه ونبرات صوته كانت تذكرني بعمي عبد حتى لكان عمي لم يغادر هذه الحياة ولكانه كان يخطر امامي في تلك اللحظة . لم اخبره بمن يذكرني به من اهلي رغم اني في كل وقت كنت فيه حرا من المشاغل كنت اترك جماعتي واقصد حجرة المضافة لاقعد على يساره امام الموقد ، فلعله ظن ان كل مايدفعني الى ملازمته هو غرامي بالقهوة المرة فكان يؤثرني بالفنجان الاول من القهوة البكر وينتظر ان يلمح في نظرة خاطفة رضا الخبير في تعابير وجهي ، ويجيبني بما لايجيب به غيري حين اساله عن الاحوال والناس ، فلا يهز لي كتفيه ولا يحيل العلم بالامر الى الله بل يقول لي بكلمات مقتضبة ولكنها حاسمة ان الانكليز خنازير وان اليهود كلاب جبناء مااستطاعوا يوما ما ان يدوسوا ارضه ولن يستطيعوه مادام في عروقه دم وفي صدور ابنائه وابناء ابنائه انفاس تتردد .. كان ذلك شيئا لايقوله لغيري من اصحابي ولا لرئيسي ورئيس جماعة المجاهدين التي كنت واحدا من افرادها . فان المفروض ان هذه الجماعة انما جاءت الى ارضه لتحميه من اليهود وتحميها ولتتخذ منها نقطة انطلاق لتحرير الاراضي التي تجاورها من رجس اليهود واغتصابهم ومحاولتهم فيها تثبيت اقدامهم فكيف يقول لافراد الجماعة ورئيسها ان اليهود لايستطيعون ان يدوسوا ارضه وانه قادر بغير هذه الجماعة المدربة على القتال المهيئة بالسلاح والعتاد المزودة حتى ببضعة رشاشات وبمدفع هاون ، انه قادر بغير هذه الجماعة ان يحمي ارضه من اليهود وان يحول بينهم وبين التسلل الى قريته او نسف منازله او الاستيلاء على نعاجه وافراسه واباعره ؟ انه لو فعل ذلك لو قال لرئيس جماعة المجاهدين ولاصحابي ماكان يقوله لي ، لما لقي منهم الا ابتسامة الاستهزاء ، اذا لم تصله من محنقيهم او بعض سفهائهم شتيمة تلحقه بكل هؤلاء الذين اتينا نفديهم بارواحنا فلقينا منهم الضيق والعقوق والجحود ولقينا منهم احيانا الخذلان والتواطؤ والخيانة ... لذلك فانه لم يكن يجيب احدا غيري بما كان يجيبني به من رأيه في الاحوال والناس ، فكان يبدو لنا عارفا بجميلنا مقدرا لحضورنا ويضع نفسه وابناءه والقليل الذي يملكه في خدمتنا ، خدمة هؤلاء الفتية

(*) من مجموعة « الحب والنفس » التي تصدر هذا الشهر عن دار الاداب ببيروت

الطيبين الكثيري الصخب المعتدين بانفسهم وباسلحتهم ، وكان يتلقى من رئيسنا او ممن يأتيه باسم رئيسنا كل امر بالقبول لايضع فيه رأيا ولا اعتراضا الا ايماءات عارضة يعتذر لها بخبرته بالارض لا بالحرب ومعرفته بالناس لا بالامور .

وكانت ارضه ، هذه الارض التي اقمنا في قريته لنحميها ولنجعل منها مركزا لحركاتنا في هذا القطاع من لواء الجليل ، تقع جنوبي صفد بينها وبين جب يوسف والرامة . جئنا هذه الارض لنجرب فيها ، مع الانكليز ، تجربة جديدة لم نتعرض اليها حين كنا في قرى القسم الاعلى من لواء الجليل شمالي طريق صفد الرامة ـ عكا . فقد كانت هذه القرى تقع في القسم العربي من مخطط مشروع التقسيم الذي كان الانكليز يهيئون انفسهم للتخلي عن فلسطين على اساسه ، وكان تدخلهم في عملياتنا فيها ضئيلا ومحدودا حتى لكأنهم كانوا يتغاضون عامدين عن اعمالنا الحربية مهما بلغت من الحدة والانتشار . لذلك فقد عبرنا بقسم من قواتنا طريق صفد ـ عكا عند قرية فراضة وتمركزنا في هذه الارض لننطلق منها في المنطقة التي اعطاها مشروع التقسيم لليهود ولنرى كيف يكون تفاعل الجيش الانكليزي ازاء غزواتنا وكمائننا في هذه المنطقة التي سموها منطقة يهودية . وكان دأب قيادتنا منذ جعلنا مقرنا في قريته ، هو من ارضه ومنذ اخلى لنا ، هو ، بعض الحجر من منازل عشيرته وشاركنا بحجر اخرى من منازل اخرى منها ، كان دأب قيادتنا ان ترسل الكشافة لتتعرف على الدروب ولتدرس نقاط الضعف للمستعمرات المجاورة ولتهيىء الخطط للحركات المقبلة . وكانت كشافتنا تصطدم في الغالب بما لم تكن تصطدم به في مناطق الرأس الاحمر وميرون وعين الزيتون ، تصطدم بحضرة دوريات انكليزية كانت تثبت وجودها وتضطر كشافتنا الى الانثناء والانسحاب الى مقرنا في هذه القرية الوعرة المسالك المنقطعة الدروب . وكان هو ، صاحب القرية وكبير العشيرة ، في كل الايام التي لبثناها نستكشف ونتهيأ ونناور ، لا يكاد يبارح مجلسه امام موقده : منه يجيب على استفهامات رئيسنا على المنطقة وقراها ومسالكها، ومنه يشير الى ابنائه بمرافقة دورياتنا او بدلالتنا على مخابيء صالحة لكمائننا . اما فيما عدا هذا وذاك فقد كان في جلسته الدائمة امام الموقد كانه قد نفض عن كتفيه هموم الدنيا كلها مطمئنا الى اننا بعددنا واسلحتنا واندفاعنا وحميتنا قد كفيناه شر اليهود والانكليز وكل ما يؤرق الناس في القرى القريبة والبلدان البعيدة ، في فراضة وعين الاسد والرامة وعكا وصفد . وفي الحق اننا كنا كذلك في قريته مطمئنين بعد طول قلق وعناء ومكابدة لحياة الحرب في القرى الواقعة شمالي طريق صفد ـ عكا . فقد كانت الارض المنبسطة حول القرية تزداد تضرسا كلما تباعدت عنها حتى تنتهي بحقول من الصخور المدببة كأنها اسوار تحمي القرية من الواغلين الذين لا يعرفون حق المعرفة مسالكها وتجعل الرقيب المتمكن من نقاطها المشرفة قادرا على اكتشاف المتسللين اليها في يسر وسهولة . فكنا ، ما عدا دورياتنا الموزعة في مهامها ، ننام في الليل ملء جفوننا واثقين من منعة معقلنا ومن يقظة حراسنا . اما النهار فكان، لمن لم يكن في مفارز الاستكشاف او الكمائن ، ادعى الى الاطمئنان اذ كنا بعيدين عن ان يتناولنا سلاح مهاجم او ان نؤخذ على غرة . ولعل هذا الاطمئنان الى سلامة مواقعنا والى بعد الخطر عنا هو الذي جعلنا نستهين بامر الحراسة فنسلمها الى مفرزة جديدة لم يتمرس افرادها بعد بأحوال القتال تمرسا كافيا وهو الذي مهد الطريق الى ان نصاب بما اصبنا به حين فاجأتنا مصفحات الجيش الانكليزي ومدافعه بزحف

الادب الثوري
عدد الاداب القادم
حافل بالدراسات والقصائد والقصص

وقصف في قلب معقلنا وفي وضح النهار .

كان الوقت اصيلا وكنت مضطجعا على الارض التربة في زاوية من غرفة المضافة اتطلع اليه وهو يقلب بيد المحماسة حبات القهوة على النار في الانية الحديدية بحركات متساوقة فيرتفع لتقليبه بها باليد المعدنية صوت خشخشة لطيف الوقع على الاذن وينبعث منه عبير القهوة العطري المثير . وفجأة هز جدران الحجرة والارض التي كنت مضجعا عليها دوي قاصم تلاه اخر واخر ، وارتفع في آن واحد وبعد لحظة قصيرة تلت الدوي عواء الكلاب وصهيل الخيل وضوضاء ملات القرية واصوات في حجرات المنازل الاخرى اخترقت الينا جدران الحجرة التي كنا فيها . وثرت من مضجعي واقفا واتجهت الى الباب اريد الاندفاع منه لولا ان نظري وقع عليه ، عليه هو ، فوجدته لا تزال كفه تروح وتجيء بيد المحماسة يقلب بها حبات القهوة بهدوء وبنفس الحركات المتساوقة التي كان يقلبها بها قبل ان تلعلع الانفجارات وتنطلق ضوضاء البهائم والناس في جو القرية . فاستحييت من ثورتي وتراجعت عن عزمي على الخروج من الباب وعدت فقعدت متصنعا الهدوء ، والقلق في الحقيقة يملأ علي جوانب نفسي . وكان ارتجاج الجدران وارض الحجرة قد توقف بعد ان تلاشى في الفضاء دوي الانفجارات الثلاثة فقلت اسأله :

ـ اين ترى وقعت هذه الانفجارات ؟ ما احسبها بعيدة عنا ؟..

فترك يد المحماسة واخذ يسوي بكفه اليمنى عيدان الحطب ويدفعها الى النار تحت الصحن الحديدي الذي كان يقلب فيه حبات القهوة ، وقال وهو ينحني برأسه على الموقد :

ـ بعيدة ؟ انها عند حقل الصخور . هذه هي مدافع الانكليز الخنازير

وكأن مسبة الانكليز قد وصلت الى مسامعهم في تلك اللحظة عينها ، فقد تلاحقت بعد فترة السكون القصيرة انفجارات مدوية اخذت تهز الارض مجددا من تحتنا وبصورة اشد مما فعلته في الانفجارات السابقة، وتناهت الى اسماعنا ضوضاء غير التي ثارت تلك المرة اخذت تقترب منا شيئا فشيئا وبسرعة . فلم اتمالك نفسي بل خطفت بندقيتي التي كانت مسندة معترضة في اطار واحد من نوافذ الحجرة واندفعت الى الباب . وفي هذه اللحظة اظلمت الغرفة حين اقتحم الباب علينا جمع من رفاقنا المجاهدين ومن اهل القرية بينهم بضع نساء ملأوا بضجيجهم جو الحجرة التي كنا فيها هو وأنا . ولاول مرة سمعت صوته يرتفع عاليا ، عاليا حتى لقد برز من الضجيج بطابعه وسيطر عليه بحدته . كان يصيح منتهرا :

ـ اش ... اش!

فخفتت اصوات الضاجين وساد الموقف هدوء نسبي استطعت خلاله ان اتبين ان في مقدمة الجمع كان رجال مفرزة الحرس الموكلة اليهم خفارة القرية في حقول الصخور المحيطة بها والملزمين بان يدافعوا عن مراكزهم حتى الموت. كانت عيونهم زائغة والذعر يعقل السنتهم ، وقبل ان يتاح لي مخاطبة واحد منهم انفرج الجمع امام الباب فتسرب الضوء الى الحجرة وبدا الرئيس ، رئيسنا ، بقامته الربعة وعينيه الغائرتين ولحيته الكثة وهو يتقدم حتى وقف الى جانب الموقد وقال يسأل واحدا

من الحـرس :

ـ ماذا جرى ؟ لماذ تركتم مراكزكم ؟

فقال الفتى الذي وجه اليه السؤل :

ـ دبابات يا سيدي الرئيس ! دبابات ومصفحات بعد التراب اقبلـت تطوقنا من كل جهة ، فجئنا نخبركم بالامر .

فقال الرئيس بهدوئه الذي كنا نعرف انه كان يخفي وراءه حنقا قتالا:

ـ جئتم كلكم ؟ الاوامر ان تظلوا في مراكزكم . جبناء!

فتلعثم الفتى وقال :

ـ الدبابات يا سيدي الرئيس .. الدبابات والمصفحات مثل التراب..

فقال الرئيس بصوته الهادىء دوما :

ـ اخرس !

وفي هذه اللحظة ارتفع دوي الانفجارات من جديد ، انفجارات كثيرة متلاحقة كان يتخللها اصوات طلقات متتابعة لاسلحة رشاشة . وخيـل الينا ان الدوي الذي كان يهز الارض تحتنا والجو حولنا كان يزداد قربا منا شيئا بعد شيء . وادرت نظري في رفاقي حولي فرايت ملامحهـم ناطقة بالخوف وايديهم على اسلحتهم لا تكاد تثبت عليها، بل خيـل الي ان رئيسنا نفسه قد فارقه هدوؤه ودب القلق الى نفسه، فقـد رأيته يقلب بصره بين رجاله ويرده الي ثم يحوله اليه ، الى الشيـخ الصغير القد الذي وقف ساكنا ساكتا لا يختلج له هدب ولا ينطق بكلمة.

صاح الرئيس بصوت ، على غير عادته ، صارخ :

ـ الى مراكزكم ، كل منكم في حظيرته ..

ولكن احدا لم يتحرك ،اوتحرك بعضنا ببطء ودون حماس ، بينما كانت انفجارات القنابل وازيز الرصاص تملأ الفضاء . وعلا صراخ طفـل تلتهصيحة امرأة هبطت بالقلوب الى الحضيض . وفجأة سمعت ، رغـم الدوي والضوضاء والتوتر المسيطر ، سمعت صوته ، صوته هو ، يقول :

ـ هؤلاء الخنازير يظنون انهم يخيفوننا بحدائدهم ورصاص بواريدهم؟ نحن لهم . يا ولد يا اسماعيل هات الفرس ..

فقال ذاك الفتى الذي ترك مركز حراسته وهرب :

ـ الدبابات .. الدبابات والمصفحات مثل التراب ..

فارتفع صوته يقول :

ـ والدبابات ؟! هل هي الا حدائد ؟ نحن رجال يا ابني وهم رجال ..

ورأيته يستدير الى زاوية من الحجرة حيث كان صندوق خشبي مصفح بمربعات من التنك ملونة وبراقة فيتناول من ورائه سيفا مهتريء الغمد لم تقع عليه عيني قبل هذه اللحظة ، وبكل هدوء تمنطق بذلك السيف ثم اخترق الجمع المحتشد في الغرفة وامام الباب وتوجه الى الفرس التـي كان يمسك بعنانها اسماعيل ، احد ابنائه . ولما امتطى الفرس واخـذ عنانها بيده التفت الى رئيسنا وقال :

ـ يا حضرة الرئيس ، خذ رجالك ووزعهم على الخنادق التي حفرتموها حول القرية .. انا وابنائي ذاهبون لنرى هذه الدبابات ...

ولوى رأس فرسه متجها بها بين منازل القرية الى الشمال حيـث كانت اصوات الانفجارات تدوي فتردد الصخور اصداءها بصور عجيبة ومريعة. وارسلت بصري ، كما ارسل بصره كل من كان في ساحة القرية آنـذاك وراء هذا الشائب الطاعن في السن على صهوة فرسه ، كان خطو الفرس هادئا كان فارسه ذاهب عليه الى نزهة ، وكان هو على سرجه قبـل ان يخرج من بين المنازل مسترخيا كانه خادم بيت عتيق وراء قافلة ظعن. ولكنه بعد ان خرج من المنازل وابتعد عن جمعنا سل سيفه من غمـده والقاه عريانا على كتفه فتبدل فجأة كل الجو الذي حوله وحولنا بهـذه الحركة منه . لم تسرع دابته في خطوها ولا هو غير جلسته على صهوة فرسه ، ولكن تقدمه المستمر يحف به على جانبيه ووراءه ستة من ابنـائه حفاة مشمرين واصابعهم على ازندة بنادقهم ، انسانا زمجرة المدافـع وازيز الرصاص والخوف الذي تسرب الى اعماق نفوسنا والذعر الـذي عقل السنتنا . ورايت بعض رفاقي يعدون وبنادقهم في ايديهم لاحقـين بالنائب ذي السيف العريان على كتفه . وسمعت من جديد صوت رئيسنا هادئا من دون صراخ وهو يلقي اوامره على عرفاء جماعتنا بالتوزع معينـا لهم اماكن التمركز والتهيؤ للقتال ..

في تلك الساعة من الاصيل ، ذلك الشيخ بين ستة من ابنائه سائـرا الى لقاء الدبابات بسيفه المجرد على فرسه الاعجف ، منظر رائع ، منظـر لا ينسى .. ولا ينسى كذلك منظر رأيت فيه ذلك الشيخ بعد ثـلاثـة اعوام او تزيد في رواق من اروقة بناء الاركان العامة ، في دمشق . في فترة هذه الاعوام الثلاثة ، بل لعلها كانت اربعة ، تغيرت امور كثيرة علي ظهر البسيطة . من قتل منا هناك بليت عظامه في قبور لا شواهد عليهـا في ارض يدنسها خطو الغاصب صباح مساء .. اما من عاد حيا فقد ادهشه ، واعجبه ، ان تضفر له من العار اكاليل الغار وان يذكر النـاس جهاده ولا يذكرون هزيمته . في ذات يوم بعد مرور تلك الاعوام خرجت من مكتب احد اصدقائي في بناء الاركان العامة فاخذت عيني بوقفته في الرواق ، وقفة جدي حداد ذي القد الصغير والظهر المحدودب ، فخيـل الي انه لم يكـن واقفا امام باب في بناء رسمي في دمشق ، بل كانـه قائم لتوه من امام الموقد في حجرته في قريته حيث كان يدردر القهوة

ـ التتمة على الصفحة ٧٣ ـ

- جائزة نادي القصة بالقاهرة لعام ١٩٥٨
- جائزة جريدة الكفاح لعام ١٩٥٨
- جائزة جريدة السياسية لعام ١٩٥٧

ثلاثة جوائز نالتها المجموعة القصصية :

وحل في جبين الشمس

بقلم : سمير تنير

- صور من عذاب الانسان العربي وكفاحه .
- اقاصيص قال عنها ميخائيل نعيمة « انهـا مكهربة بالمشاعر البشرية الحية »

صدرت اليوم عن :

منشورات عويدات

اينما كان

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٨ ـ

بين دلالها المختلفة الاحجام المتدرجة في الصغر من القمقوم الى المصب. جمدت في مكاني اتطلع اليه في قيامه الصابر امام الباب الذي كان واقفا حياله ، كفاه ممسكتان احداهما بالاخرى وراسه مطرق الى الارض ونظره مثبت في نقطة واحدة من اسفل الباب .. واقفا ينتظر ، من امد طويل هممت بان اندفع اليه فأهز يديه واقبل وجنته وكتفه ، ولكني لاطراقة رأسه الثابتة الصابرة ولوقفته التي لا تتبدل بدلت عزمي . احسست بيد تعصر قلبي وبمرارة تتسرب الى اعماق نفسي فتملأها . ماذا اقـــول له وكيف اتقدم اليه ؟... انه يقف هنا وقفة تكاد ان تكون وقفة الذل امام تابع تابع تابع الرئيس الذي اعاد هو الى روعه ، بمشيته الهادئـة بسيف مهتريء الغمد على حصان هزيل ، اعاد هو الى روع ذلك الرئيس الهدوء والى صدور رجاله قلوبهم التي طارت منها . فما الذي اقول لـه في وقفته هذه امام هذا الباب ؟ هل اقول اننا بعددنا واسلحتنا وما كنـا نمثله من دول وقوى وراءنا عجزنا عن ان نحمي ارضه التي كان هـو يحميها . بنفسه وابنائه ؟ .. انه ليعرف ذلك جيدا ، والا لما كانت لهذه الاطراقة وهذه الوقفة في هذا المكان . ام اقول له اننا دفعنا رجالنـا في المالكية وفي الرأس الاحمر وفي عين زيتيم وجئنا هنا لنتسلق المجد على اجدادهم وننشد لنا الفخار باعمالهم ؟.. وشعرت بالخزي يملأ علـي جوانب نفسي وبأني عاجز عن مواجهة هذا الشيخ الكئيب في هذا المكان وفي هذه الساعة ، فعدت الى مكتب صديقي الذي خرجت منه وارسلت استفهم من المكتب المجاور عما جاء به الى هذا المكان . فجاء الجواب حاسما : لقد جاء يطلب ما لا يمكن تحقيقه .. صودرت منه ست بنادق فجاء يتوسط الى الرئيس، ذي الحول والطول ، مدعيا انه عرفه فـي ذات مرة في فلسطين ، ما اكثر من عرف الرئيس في فلسطين وفي غير فلسطين ! جاء يتوسط اليه ليراه وليسترحم منه الافراج عن بنادقه الست .. ولكن الرئيس غير فارغ للقاء هذا البدوي الخرف ، واذا فرغ له فانه لن يلبي طلبه ، فان هؤلاء البدو الشياطين الذين يتسللون كل يوم مـن الحدود واليها لا يؤتمنون لا على سلاح ولا على ارض ولا على وطن !

ربما كان الان في قريته التي تتألف من بضعة منازل من الحجر الغشيم، الذي لم يصقل ولم تحسن تسويته ، منازل يتكون كل منهـا من حجرتين او ثلاث حجر مبنية متلاصقة على صف واحد ، متجهة كلها الى الجنـوب حتى تتلقى الشمس بجباهها وتترك ريح الشمال وراء ظهورها ، تحيـط بهذه المنازل ارض منبسطة ولكنها مزروعة رؤوس حجارة وفتات صخور ينبت في تربتها الفقيرة عشب لا يكاد يشبع بطون دوابه القليلة من نعاج هزيلة وافراس ضئيلة القد وبضعة حمير وبعير او بعيرين .. ربما كـان الان في قريته تلك التي لا يربطها بما حولها من مدن او قرى الا دروب ضيقةفي الارض الصخرية، ولكنجنود اسرائيليبرزونفيها بينالحينوالحين ليحصوا الذكورمناهلالقريةوليتفقدوافيها بطاقاتالتموين،فاذااقتحمواعليه الحجرة المبيضة النصف الاسفل من جدرانها الداخلية بالكلس والتي كان يعدها مضافة لزواره وجدوه يتشاغل باشعال نار كان في يوم مـا يعد عليها القهوة للضيوف ، فينتهرونه ، فيقوم اليهم متكاسلا بين البرم والثائر بينما يتسلل احفاده هاربين الى الحجرة الاخرى حيث تجمعت في زاوية منها حفيداته وامهاتهن وجداتهن ،عينهن الى الباب واسماعهن الى المضافة وصدورهن مملوءة بالتوجس والخوف والفم ..

ربما كان الان في قريته تلك او في قرية اخرى بعيدة ، قرية عـلى الحدود ، في كوخ مصنوع من القش و لطين او في بيت من الشـعر قائم على عمودين ، عنده كما عند كل رجال الحدود بندقية ولكنه لا يحملها على كتفيه فهي على كتفيه الواهنتين ثقيلة وانما يعتمد عليها حين يقوم . ينظر من تحت حواجبه الكثة الى ابناء ابنائه وبناتهم فلا يملأ صـدره الفم الذي يملأه لو كان في قريته حيث يقتحم عليه جنود اسرائيل المضافة وانما تملؤه حسرة ان ينتهره حين يتكاسل في القيام والاحترام عريـف لا يدري من هو ، اين كان ، واين امسى .. وان يرتقب ليقيـم اوده ويطعم صغاره وصغار ابنائه ان تصل اليه حصته من معونة الشتاء ، وان يمد بصره فيرى بمده طلائع الارض التي هي ملك له او ملك لمن هـو منهم ولكنه لا يقوى على الوصول اليها ..

ربما كان في قريته تلك وراء الحدود او في قرية اخرى على الحدود، وربما لم يكن في هذه ولا في تلك وكان في مكان اخر . ان عشرة أعوام امد طويل على شيخ ينوء بعبء السنين.. ربما كان في جدث تحتالارض انطفأت فيه عيناه اللامعتان وهمد صوته الحاد واتى الموت فيه عـلى حركات ذراعيه المقتصدتين وخطوه الهادىء المتزن ، فلم تبق منه الا حجارة مركومة على قبر ضائع في تلك الارض البعيدة وهي القريبة ، المرخصة وهي الغالية ، المنسية وهي التي لا تنسى ..

ربما كان الان في قريته وربما كان في قرية اخرى على الحدود او كان دفينا في قبره . اينما كان فاني اذكره واحيي ذكراه ، واخفض الرأس لتحيته ولدى تذكاره... اينما كان !

عبد السلام العجيلي